الحلقة السابعة والعشرون

(1) (قصر علي باشا.. آذار صباحا.. شـهربان تمـشط شـعرها الأسود الطويل وتعقصه في جديلة ملفوفـة خلـف رأسـها.. الوصيفة تلعب الكرة مع علي في الحديقة.. زائرة شقراء عند باب الحديقة تسأل ان كان هذا منزل على باشا.. يبـدو مـن لهجتها أنها أجنبية بالرغم أنها تتكلم العربية.. تسألها الوصيفة عن إسمها.. تقول بأنها صديقة شهربان.. تهرع الوصيفة الى الداخل)

الوصيفة: (لشهربان) هناك زائرة أجنبية اللسان تقول بأنها صديقتك..

شهربان: أين هي؟

الوصيفة: تلعب الكرة مع علي..

شهربان: (تنظر من النافذة) انها هيلدا! (تهرع الى خـارج القـصر لاستقبالها.. تتعانقا بلهفة وحنين الشباب المليء بالـذكريات.. تحمـل تحت إبطها علبة ملفوفة بعناية)

هيلدا: نحن في الثاني عشر من آذار، وهذه لعلي في عيد ميلاده..

شهربان: أتذكرين عيد ميلاده وأنساه وأنا أمه؟

هيلدا: أنا أذكر كل شيء عنك وعن أولادك يا شـهربان، بـل عـن أسرتك التي تركت في نفسي أكبر الأثر.. كنت أرغب في زيارتك في عطلة عيد الفصح من ذلك العام لأهنئك بمولد علي، لولا أنني شغلت في الخارجية بصفقة السلاح بيننا وبين تركيا التي جاء والدك ليبرمها مع وزير الدفاع عندنا.. وكنت أيضا راغبة في إهـداء كتـابي عـن الطبخ الشرقي لوالدتك الكريمة رحمها الله، فـاذا بـي أسـمع فـي الخارجية نبأ وفاتها.. (تتنهد شهربان)

شهربان: والله كبرت عشرة أعوام منذ وفاتها! كانت حاملـة عـبء أولادي جميعهم (تنادي عليا) تعال وانظر الهدية التي أتت بها خالـة هيلدا! (يركض علي ويفتح العلبة فيشاهد فيها نموذجا مصغرا لقطـار وسكة حديد)

هيلدا: انه نموذج مصغر عن القطار الذي تعهدت شركة ألمانية بمـده من البوسفور حتى أنقرة.. وممولة الذي حصل على الإمتيـاز ألفـرد كارلا، صديق لأبي وهو الذي أهداه هذا النموذج! (تمد هيلدا الـسكة الدائرية للقطار بعد أن تثبت قطعها، وتركب مختلف قطـع القطـار،

وتشغل الزمبرك فيسير القطار على السكة ويـدور، ويلهـب خيـال الصغير فيصفق فرحا، وكلما توقف يعود الى شحنه بالزمبرك المـرة تلو المرة وهو في أشد الإبتهاج.. تقف هيلدا متأملة صورة علي باشا الزيتية، بحجمه الطبيعي تتصدر جدار الصالة) المرة الأخيـرة التـي رأيته فيها كانت في منزل والدتي، وكانت قد رتبت له موعـدا مـع وزير الدفاع عندها..

شهربان: كيف حال والدتك؟ والله اشتقت كثيرا لسماع صوتها!

هيلدا: (باكية!) أما علمت بموتها؟ ألم يخبرك والدك؟ من غير المعقول أنه يقوم بزيارات للسفارة ولا يسمع بموتها!

شهربان: أبدا! هل توفيت في هذه السن الصغيرة؟ متى كان هذا؟

هيلدا: في شتاء العام الماضي بعد عيد الميلاد بقليل!

شهربان: انه الزمن الذي توفي فيه والدي! (لنفسها) أتراه علم وأخفى الأمر عني؟

هيلدا: لقد نادته اليها!.. ألا تعلمين بالحب الكبير الذي كان والدك يكنه لوالدتي؟

شهربان: لا أبدا، كان معجبا بها وبصوتها الرائع، ولكنه كان كـذلك، ينتشي لكل صوت رائع يسمعه أكان صاحبه امرأة أم رجلا!

هيلدا: انني أعرف بهذا منذ زرت ألمانيا برفقة زوجك الأمير مـراد، وابن خالتك الأمير بهجت وزوجته الألمانية أنجة..

شهربان: (في تأمل) الناس أسرار.. لا تعرف البنت سـر أبيهـا، ولا الأم سر ابنتها، ولا الزوجة زوجها، ولا الصديق صديقه..

شهربان: معنى هذا أنه كان يحبها منذ عهد بعيد، ولا أحد فينا يدري ما الذي يكنه قلبه!..

هيلدا: أبعد مما تظنين، ربما منذ رآها في ويمر، حين كنت أنا وأنـت صبيتان صغيرتان.. لقد نما هذا الحب وأثمر.. ان لك أخا يا شهربان هو أكبر من ابنك عثمان بثلاثة أعوام!

شهربان: (وقد أذهلها الخبر وأفرحها) أي أنه في السابعة عشر مـن العمر.. ما اسمه؟

هيلدا: كونراد روبنشتاين..

شهربان: لماذا روبنشتاين؟ ألا يعرف بأن علي باشا والده؟

هيلدا: ليس بعد.. جاء معي بعد وفاة والدتي.. فعينه والدي معاونا لـه في السفارة..

شهربان: هل يعلم والدك أنه إبن علي باشا؟
هيلدا: لا، ان ما يعرفه أنه إبن ضابط هو إبن عم والدتي، قتـل فـي الحرب دفاعا عن ألمانيا حين هاجمها الروس.. وهو يحمل كنية عائلة أمي روبنشتاين، ومن الأفضل أن يبقى على هذا الوهم..
شهربان: كونراد يجمع بين عائلتينا.. هو أخوك من أمك، وهو أخـي من أبي.. هل ترين أنه من الأفضل أن يبقى على هذا الوهم بالنـسبة لي؟
هيلدا: أوصتني أمي وهي على فراش الموت إثر نيمونيـا حـادة لـم تمهلها غير ستة أيام، أن أخبره بمن يكون أبوه.. وهذا يعود اليك يـا شهربان، فهل هذا يناسبك؟
شهربان: كيف أرفض هذه النعمة التي تهبني إياها السماء؟ أصـبحت في شوق لأرى كونراد وأضمه وأقبله، انه من رائحة أبي الذي أحببته وفجعني موته لأنه كان لي الصديق الوحيد.. مسكين أبي كـم كـان يتعذب وهو يخفي سره بين جوانحه، ينظر فـي وجـه كـونراد ولا يستطيع القول أنه أبوه، ويضمه اليه ضمة الوالد لابنه الحبيب.. (هيلدا تنهض تريد الخروج)
هيلدا: والآن وقد اطمأن بالي على موقفك من كونراد، سـأعلن لـه حقيقة مولده.. سيكون هو الآخر سعيدا أن تكون له أخت كـشهربان تعوضه عن فقد أمه! وداعا..
شهربان: أنت في ضيافتي!
هيلدا: لا أستطيع المكوث.. لدي عمل في السفارة!
شهربان: تعالي عند المساء مع كونراد لتحضري عيد ميلاد علي..
هيلدا: سأفعل، ولكن أرى أن تكتمي أمره عن أهل زوجـك، وحتـى عن زوجك.. فالأحداث تتسارع في المنطقة وليست صالحة للعلاقات التركية والألمانية!

(2) (صيدا.. منزل الأسير.. فاطمة تشعر بتشنجات الـرحم منـذ العصر)

حنيفة: لعله مغص من الكبة التي أكلناها عند الغذاء.. سأحـضر لـك مغلي النعنع الجاف، فان زاد عليك الألم عند المساء أستدعي لك الداية أم سعيد قبل المغيب.. (تشرب فاطمة مغلي النعنع ولكن المغـص لا يزول)

فاطمة: عجلي يا خالتي أم محمود.. تعاودني النوبات.. وأشعر بألم لا يطاق..

حنيفة: (ترتدي ملاءتها وتخرج.. فاطمة تتمشى في غرفتهـا جيئـة وذهابا.. تخرج من خزانتها حقيبة المولود.. تقف أمام المرآة تمـشط شعرها وتجدله حتى لا يربكها.. يعاودها الألم متسارعا فتتمدد علـى السرير.. تقوم في نوبة أخرى تتمايل ذات اليمين وذات الشمال، تعاود المشي فلا تستريح، تأتيها النوبة وهي واقفة أشد مما هـي متمـددة.. تحاول التمدد والجلوس، وهي تعض على طرف اللحاف ولكن الألم لا يتوقف الاّ ليستمر(تصل الداية وأم محمود)

أم سعيد: (تفحصها) إطمئني ياابنتي كل شيء طبيعي.. رأس الجنـين في باب الرحم.. هل الحمام ساخن؟

أم محمود: انها ليلة صعبة فاحتمليها.. لـن تطـول ولادتـك سـاعة أوساعتين لا أكثر وتنتهي آلامك.. الفلاحات عندنا يعملن في الحقـول وحين تحس إحداهن آلام الوضع تنتحي تحت شجرة وتضع مولودها.. وتأتي جارتها وتقطع الحبل السري للجنين وتغطيه بورقة شجر طرية تضعها فوق السرة وتضغط عليها بحجر، ثـم تلفهـا بـشريط مـن قميصها، وتنزع منديل رأسها وتلف به الجنين.. إحمدي ربك أنك في المدينة، في منزلك، وعلى سريرك، وتأتي اليك داية مدربة رأى النور على يديها نصف أطفال صيدا.. هيا اكبسي وساعدينا علـى خـروج الجنين.. وعضي على ذراعي ان برح بك الألم.. (تهدأ آلام فاطمة)

فاطمة: لا أستطيع أن أعض ذراعك يا خالة، لأن فضلك علي غمرني فهاتي يديك لأقبلهما!

حنيفة: (تمسح على رأسها) هيا يا حبيبتي.. ادفعـي للـشيخ ببنـت ندعوها فريدة.. انك تشبهين فريدة التي كانت زينة دنيانـا، فلعـل الله يرزقنا بنتا تشبهك ويعوضنا بها عنها، ويشفي جرحنا لفقدها.. فتكون في الغد بشارة للشيخ تسعد قلبه..(تعود الآلام متسارعة، متناقصة بين النوبة والأخرى فترة السكون) هيا! هيا! (تصرخ الداية)

الداية: ظهر الرأس هيا يا فاطمة، واعط كل عزمك في دفع الجنـين (فاطمة تشد بكل ما أوتيت من عزم فينزلق منها الجنـين، وتغمـض

عينيها وقد أحست بالراحة الكبرى بعد جهاد المخاض الصعب على المرأة التي تلد ولادة طبيعية. وتسمع وهي مغمضة العينين صوت حنيفة تزغرد "انها بنت" وترفعها لتراها فاطمة، وهي تصرخ بكل قوتها واع واع..

(3) (شهربان تقرأ رسالة وصلتها لتوها من جلنار)

أختي العزيزة شهربان،

بمزيد الأسى والحزن أحمل اليك نبأ فجيعتي بوفاة والدتي، كانت في الفترة الأخيرة تعاني من قرحة في المعدة وتتوجع كثيرا، وترفض أن تجرى لها عملية.. وكان طبيب العائلة د. رأفت يعودها ويعطيها الأدوية التي تخفف من حموضة المعدة، والمهدئات ويقول لها أن علاجها لايكون تاما الاّ بالجراحة واستئصال القرحة، ولكنها كانت تخشى العملية.. فلم تنفعها الأدوية، وثقل عليها المرض وتوفيت منذ أسبوع..

يشغل بالي رغبة عثمان ومصطفى وسليمان الذين يلحون في الإنضمام اليك بعد وفاة جدتهم، ولكنني أقنعتهم أن يتريثوا حتى نهاية العام الدراسي.. وانتقلت أنا وخالد الى المنزل لرعايتهم، فأليسار لا تصلح لذلك، وقد أصبح عثمان ومصطفى في سني المراهقة، ولا يحسن أن يتركوا لوحدهم.. وعندما تنتهي السنة الدراسية ويأخذون نتائجهم، آتي أنا وخالد ونصطحبهم معنا الى لبنان، فخالد مشتاق لأهله، وأنا مشتاقة لأراك، وأعرف أحوالك بعد وفاة والدك رحمه الله، ومافعلته الحياة بك.. سيرتب لي خالد نقل راتب المرحوم مراد من والدتي اليك، يعينك في الغربة اذا نويت البقاء في لبنان، أو أبقيه مصمدا معي اذا كنت تنوين العودة الى استنبول..

أختك المحبة جلنار

محمود: عسى خيرا ما وردتك من أنباء!

شهربان (تناوله الرسالة ليقرأها) اقرأها بنفسك! (لنفسها) الآن يظهر معدن الرجال..

محمود: ألست مسرورة لينضم أولادك اليك؟ مم تخشين يا شـهربان؟ أتخافين أن يفتر حبي لك؟

شهربان: لست أخشى على أولادي منك، ولكنني أخشى مـن أولادي عليك.. هم لا يعلمون بزواجي منك، وأنا في خيالهم الأم التي عليهـا أن يكونوا حبها الوحيد بعد وفاة والدهم..

محمود: يجب أن يدركوا أن للكبار حاجات لا يمكن لهم أن يحسوا بها الآن في أعمارهم الصغيرة.. ان أمامهم مثلا ساطعا.. خالد الذي بقي وفيا لذكرى فريدة عشرة أعوام، تزوج أخيرا جلنار.. لو كـان خالـد صادف جلنار منذ زمن بعيد لما بقي دون زواج.. هذه طبيعة الإنسان، لا يمكن له أن يعيش على الأحلام والذكريات أكان رجلا أو امـرأة.. أعطيتهم ما يكفي من الحنان في طفولتهم!

شهربان: نحن الأمهات التركيات لا نربي أبناءنا علـى الحنـان بـل الإحترام، حتى لا يفقدوا صفات الرجال.. أنا لم أكن أقبلهم الاّ وهـم نيام، بالرغم من كل شوقي لأفعل ذلك.. هكذا علمني والدي..

محمود: أنا لا أوافقك على هذه التربية.. لقد أشبعتنا أمي في طفولتنـا ضما وتقبيلا وحنانا، وما أفقدنا هذا حيويتنا ولا رجولتنا ولا انسانيتنا..

شهربان: ألن تتزعج يا محمود لو أحاط بك أربعة من أبنائي يغارون منك علي؟ الأبناء يغارون حتى من والـدهم الـذي أنجـبهم فكيـف بالغريب؟

محمود: أنا كوالدي أحب الأسرة الكبيرة، وأعـرف كيـف أعاملهـا بالحسنى مثلما كان يعاملنا أبي..

شهربان: لا تقل بأنك ستفعل بهم ما كان يفعله أبوك بكم وأنتم صغار حين يزوره ضيف ثقيل.. يدخل عليكم ويسألكم ان أنجزتم فروضـكم ويضرب المقصر فيكم بالسوط، فيتعالى صياحكم وبكاؤكم حتى يهرب الضيف الثقيل!

محمود: (ضاحكا) ليس سوطا، بل مـسطرة.. كـان يحمـل عـبء تدريسنا، الى عبء معيشتنا، ولا يجد الوقت لإرواء حاجاته الثقافيـة والأدبية! ولكن من أخبرك بهذا؟

شهربان: انها فريدة يرحمها الله.. كم كنت أحبها وأتعسني فقدها، بـل حين رأيتك لأول وهلة تراءى لي أنني أشاهد وجه فريـدة بملامـح رجل..

محمود: الحياة لها وسائلها لتبرئ جروحنا، وتعوضنا عمن نحـب.. بل انني أحيانا أرى في ذهنية المؤمنين بتناسخ الأرواح وجهة نظر.. لعل حبنا الصاعق من الوهلة الأولى يحمل في لا وعينا الرغبة فـي تكرار انسان نحبه وفقدناه.. ووالدي نفسه حين تزوج فاطمة وعمـره ثلاثة أضعاف عمرها كان في لاوعيه الرغبـة فـي تكـرار فريـدة وإعادتها الى الحياة بطفلة تشبهها.. لقد تعذب كثيـرا لفقـدها فـأبرأ جراحه أن عوضه الله بفريدة الصغيرة التي ملأت عليه حياته..

شهربان: وأنت ما الذي رأيت فيّ لتكرره؟

محمود: صورة شهربان الصغيرة.. قلت لنفسي " أليس جنونا أن يفنى هذا النموذج البشري الرائع دون أن يتكرر بدزينة من البنات؟

* * *